سنوحي

القصة الواقعية الاولى في آداب الشرق

بقلم : انيس صايغ

لا تزال آداب امم الشرق العريقة تملأ فراغاً كبيراً في مجموع آداب العالم الكلاسيكية عبر التاريخ . فقد حفلت حضارات هذه الامم بروائع ادبية وفنية تضاهي الاسس العلمية والفكرية والمادية التي قامت عليها نهضاتها الحضارية الحيّة مع الايام .

ولقصة سنوحي ، المصرية الاصل ، من المميزات والصفات ما يجعلها في مقدمة الآثار الادبية في مصر القديمة بشكل خاص ، وآثار امم الشرق بوجه عام . هذا الى جانب اقدميتها الزمانية ، اذ هي من اوائل القصص في تاريخ العالم ، اقدم قصة شهيرة خطّها الانسان . فهي ترجع الى عهد الاسرة الثانية عشرة في التاريخ الفرعوني على ارض مصر ، اي الى حوالى اربعة الاف سنة خلت .

يتكلم بطل القصة ، الذي يروي حوادثها بنفسه ، عن تاريخ حياته – عن نشأته في مصر ولجوئه الى سورية ، وعودته اخيراً الى مصر بعد غياب طويل .

فسنوحي امير كان ينتمي الى بلاط الفرعون امنمحت الاول ، ويشرف على شؤون قصره ، ويتولى مسئوليات عسكرية وادارية عالية في الدولة . وبينما كان يحارب مع ولي العهد في جبهات الحرب المصرية الليبيّة بلغ مسمعه نبأ وفاة الفرعون ، قريبه وصديقه ، وانتقال التاج الى ابنه ، سنوسرت الاول . ويظهر ان العلاقات الشخصية بين سنوحي وهذا الامير لم تكن حسنة ، اذ اضطرت سنوحي الى الهرب من الجبهة حيث كان يحارب ، واختراق مصر من اقصى غربيها الى صحاريها الشرقية ، وعبورها الى سيناء ، ثم الى فلسطين .

ويتحدث لنا سنوحي في قصته عن مقامه في فلسطين ، وعطف احد امرائها عليه ، واعجابه به ، واعطائه ابنته زوجة له ، واقطاعه اياه ارضاً في بلدة بي .

فاستقرّ به المقام في فلسطين ، وعاش فيها مدة طويلة ، وانتشر خبره في مصر وفي سورية ، وارتفع مقامه وتزعم القواد السوريين ، ووطّد الامن وراقب التجارة والمواصلات ، وحمى الهاربين اللاجئين اليه ، واستضاف الزائرين ، وانمى ثروته وزاد ممتلكاته . ولكنه ظل مع هذه الخيرات كلها يحنّ الى مصر ويتوق الى الرجوع الى ارض مولده وحداثته . لذلك لم يخيّب دعوة الفرعون لما ارسل اليه يطلب اليه الرجوع الى مصر والعودة الى وظيفته في قصره الملكي . وغادر فلسطين غير آسف ، وحظي في مصر ، حال وصوله اليها ، باستقبال رائع ، ونال من الفرعون الكثير من الهدايا والمأكولات والاثواب ، وعُهد اليه ببعض المراكز الرفيعة الشأن .

هذه هي قصة سنوحي باختصار وتبسيط بالغين . ولكن الرجوع الى القصة بنصها الكامل – ان في اللغة الهيروغليفية الاصلية ، او في الترجمات الرئيسية عنها ، الالمانية والانكليزية والافرنسية والعربية – يبرز للقارىء عدداً وافراً من الصفات التي تتمتع بها هذه القصة ، والمميزات التي لا تتوفر في معظم اثار آداب الشرق القديمة . وهذه الصفات هي التي تقدّم « سنوحي » على غيرها من الروائع القصصية الكلاسيكية ، والتي تكاد تجعلها القصة الاولى في تاريخ البشرية .

فقصة سنوحي من اكثر القصص العالمية قوة في الاسلوب . وقد استطاع الكاتب ان يحبك وقائع القصة بقوة قادرة على السيطرة على القارىء ، ولو بعد اربعين جيلا ، والتنقل به خلال مشاهد القصة ، ووقائعها النفسانية والجغرافية ، والتأثير عليه خلال هذه التنقل . وبينما يتحدث سنوحي عن تجوّلاته وسفراته في مصر وفي سورية وبينهما ، وفي القصور والقفار ، وفي الحروب وايام السلم ، يرى القارىء امامه مشاهد حسّية منتزعة من صميم واقع تلك الاوضاع ، وتلبس الحقائق الكلامية شكلا مجسماً يكاد يفوق الاوضاع المجسّمة المشهورة في ملحمة قلقامش الخيالية في الادب السوري القديم .

وتتفوق قصة سنوحي على غيرها من القصص المصرية والسورية القديمة بواقعيتها التامّة . فسنوحي انسان من لحم ودم ، عاش اياماً سعيدة وشقي اياماً اخرى ، وتنقل بين المدن والدول المختلفة وخالط الاقوام المتعددة ، وعمر قلبه بمختلف العواطف والاشجان والاحاسيس . وهو يروي

قصة هذه الحياة كما هي ، دون ان يزيد على وقائعها حركات خيالية تنقلها الى مصاف الاساطير ، ودون ان يضيف الى احساساته تأملات فكرية تعطيها قيمة وعظية . فمتاعبه متاعب طبيعية قد يتعرض لها اي انسان منا في اي عصر ، وعواطفه بالرغم من حدتها ، عواطف بشرية عادية .

يصور لنا سنوحي وقائع قصته بواقعية امينة ودقيقة . ومن هذا التصوير العلمي في قالبه الفني نتزود ، نحن ابناء القرن العشرين الباحثين عن اخبار الماضي في الادب كما نبحث عنها في التاريخ ، بمعلومات وافرة عن اوضاع تلك الازمنة والامكنة على صعيد جغرافي وتاريخي واجتماعي .

يتحدث الكاتب في قصته عن حروب سنوسرت الاول مع الليبيين، وعن وفاة الفرعون امنمحت الاول وتفاصيل ولاية ابنه للعرش ، (وكان ذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة، بين ١٩٩٥ - ١٧٩٠ ق . م .) ، وعن علاقات مصر مع دول سورية ، وقيمة المصريين عند اهل سورية ، ومدى انتشار اخبار مصر ولغتها عندهم ، وسرد اعمال الفرعون ووصف قوته وصفاته ، الى غير ذلك من الامور التاريخية .

وفي القصة تفاصيل وافية للطرق الداخلية في مصر وفي سورية ، ولطرق المواصلات بينهما عبر شبه جزيرة سيناء الصحراوية . وفيها اخبار عن استحكامات الجنود المصريين الدفاعية، وعن الحدود وتحصينها ، واهلها وبدوها ، وتنقلات الجنود والرعاة ، وعن مدن فلسطين ، وغناها الطبيعي ، وزراعاتها وحيواناتها .

وتتحدث قصة سنوحي ، من الناحية الاجتماعية ، عن عددوافٍ من معتقدات المصريين واوضاعهم الاجتماعية ذلك العصر - مثل علاقة الملك بالرعية وبالآلهة ، والايمان بالموت والحياة وما بعدهما ، والطقوس الدينية والجنائزية ، واخبار الالهة وصفاتهم واسمائهم ، واساليب النزال بين المحاربين ، ووصف قصر الملك وحاشيته وعائلته ، واخبار العادات المصرية والسورية ، من شجاعة ودهاء ومكر وخداع ومدح ورقة شعور ...

وان كان سنوحي يتوفق الى حد بعيد في رسم الحقائق التاريخية والاجتماعية والجغرافية في قالب روائي فني ملذٍ رائع ، فهو يتوفق ايضاً في رسم الاوضاع النفسانية التي كان الكاتب يعيشها في الوقائع المجردة التي تكلم عنها. وكما استطاعت تلك الصور الحسّية ان تخلد عبر اربعين قرناً من الزمان ، لا تزال الاحاسيس النفسانية المعبرة في كلمات بسيطة حيّة شديدة التأثير على القاريء المعاصر . فلقصة سنوحي الفضل الاول في تأسيس دعائم فن التحليل النفساني في القصة الكلاسيكية . ويندر وجود هذه المزيّة في معظم آداب مصر ، وفي كثير من القصص السورية ، القديمة .

وقد صور لنا سنوحي مختلف الاختلاجات النفسانية التي تعرّض لها ، ببراعة ودقة ، وسكبها في عبارات موسيقية بليغة. ولا مجال لنا الآن لنقل هذه المشاعر المتعددة - مشاعر الخوف ، الخوف عند موت الاصدقاء ، وعند الهرب ، وعند الانفراد ، وعند التغرب ، وعند الحاجة ، ومشاعر المفاخرة ، بالانتصار على الاعداء ، وبالتغلب على صعوبات الحياة ، وبالغنى والثروة والمركز والجاه والتسلط ؛ ومشاعر الوطنية والحنين الى البلاد .

كان سنوحي قومياً مصرياً صميماً . وهو اوّل من خلد الشعور الوطني المصري في ادب حي . مُليء احساسه بالولاء للوطن والشعب والملك ، وعمر قلبه بالمحبة والشوق الدائم لمياه النيل وتراب ضفافه . وتتجلى هذه العاطفة الوطنية في القصة المذكورة اكثر منها في اي قطعة ادبية اخرى من آداب الشرق العريقة . ولا اذكر كاتباً شرقياً واحداً ، من عصور

الى مدرسي الانشاء في العالم العربي

قبل ان تقرروا كتبكم للعام القادم

راجعوا سلسلة

كيف أكتب

وتقع في اربعة اجزاء للصفوف الابتدائية وهي حافلة بالرسوم الملونة والقصص الخاصة بالمطالعة والروايات التمثيلية.

دار العلم للملايين

ما قبل المسيح ، استطاع ان يعبّر عن ولائه لوطنه بالقـــوة والجمال نفسيهما اللذين عبر بهما سنوحي عن تلك الرابطة التي تشدّ قلبه الى ارض النيل .

فعندما يستدرج الامراء السوريون سنوحي للتكلم عن فرعون مصر ينتصب مفتخراً ومتغنّياً ، بكـل جرأة واباء قومي ، بفرعونه الذي « لا شبيه له ، الحكيم الحـــازم ، المسيطر على العالم، الشجاع القوي الجسور، المنتقم ، الرشيق ، المحبوب الرؤوف ، الاله بين الناس ، الذي لا يخطيء في قتال ولا ينجو منه عدو !» .

وعندما يطول به المقام في ارض سورية يحنّ الى مصر ، الارض « التي يحيا برحمتها ، ويسكن قلبه فيها » وما ان يأتيه عفو سنوسرت عنه حتى ينبطح على بطنه ويلمس التراب وينثره فوق رأسه ، ويبتهل الى الاله الذي ارجعه الى مصر « الارض الحبيبة التي فيهـــا وُلد » واخرجـه من سورية « الارض المتوحشة » .

وقد تمكن سنوحي من تصوير هذه العواطف باسلوب متين بعيد عن التفكك والركاكة . وتمكن من سرد الوقائع بتسلسل منطقي منظم . وكانت لغته نقية وخـــالية من الاخطاء . ولكنه لم يحرر نفسه من بعض التكلف البياني والزخرف اللفظي ، الذي اضعف من المعنى وضحى ببعض القوة من اجل التزويق الكـــلامي . وترجع هذه النزعة التكلفية الى وضع الادب المصري في عصر سنوحي . فقد انحرف ذلك الادب ، في عهد الاسرة الثانية عشرة ، عن اسلوبه القديم البعيد عن التكلف ، وانغمس في بديع لفظي ننفر منه اليوم .

هذه هي قصة سنوحي الخالدة في الادب المصري العتيق ، التي يرجع عهدها الى اربعين قرناً ، فترجع بالقاريء الى أزمان لا نزال نتلهف على اخبارها ، والى اماكن لا نزال نبحث عن اوضاعها . وتتمكن القصة من كشف هذه الاخبـــار والاوضاع باسلوب صريح جميل . ولكنها تكشف للقـاريء اكثر من اي شيء آخر ، عن جمال القصة نفسها - الجمال في القوة والاسلوب والتحليل النفساني للشخصيات والخلجات ، وفي السذاجة والعفوية في الانطلاق . وبهذا الجمال تتبوأ قصة سنوحي عرش الادب التقليدي في مصر وفي الشرق . وتظل مثالاً للادب الخالد الحيّ مع الاجيال .

انيس صايغ

لجنة التأليف المدرسي

بيروت

•

تقدم الى المدارس المجددة اصلح الكتب وادقها انطباقاً على نظريات التربية الحديثة . صدر عنها :

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة

الجزء الاول ١٠٠ ق.ل	الجزء الرابع ١٧٥ ق.ل
« الثاني ١٤٥ «	« الخامس ١٩٠ «
« الثالث ١٧٠ «	« السادس ٢٢٠ «

يلحق بهذه السلسلة كتاب « المروج الملونة » وقد اعد خصيصاً لحدائق الاطفال وثمنه ٥٥ قرشاً .

الجديد في دروس الاشياء : سلسلة كتب حديثة في العلوم

الجزء الاول ٨٠	الجزء الثالث ٢١٠
« الثاني ١٢٠	« الرابع ٣٠٠

كيف اكتب : سلسلة حديثة في الانشاء العربي

الجزء الاول ٩٠	الجزء الثالث ١٣٥
« الثاني ١١٥	« الرابع ٢٠٠

الجديد في دروس الحساب: سلسلة كتب حديثة في الرياضيات

الجزء الاول ١٢٥	الجزء الرابع ٢٧٥
« الثاني ١٧٥	« الخامس ٣٥٠
« الثالث ٢٢٠	

الجديد في قواعد اللغة العربية: سلسلة كتب حديثة في القواعد

الجزء الاول ٩٥	الجزء الثالث ٢٠٠
« الثاني ١٢٠	« الرابع ٢٥٠

التعريف في الادب العربي
للاستاذ رئيف خوري

الجزء الاول ٤٠٠

الجزء الثاني ٦٥٠

تطلب هذه الكتب من مكتبة انطوان ودار بيروت ودار العلم للملايين ودار المكشوف ومكتبة لبنان ومن سائر المكتبات في لبنان .